

الدرس التاسع والأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر». ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) رواه مسلم .

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((باب ما جاء في منكري القدر)) أي ما جاء في شأنهم وحقهم من الوعيد الشديد والتهديد العظيم ، وأن إنكار القدر كفر بالله سبحانه وتعالى محبط للأعمال ومبطل لها ؛ وذلك أن الإيمان بالقدر بإجماع أهل العلم أصل من أصول الإيمان وأساس من أسسه العظام ، وأن الأمور كلها بتقدير الله سبحانه وتعالى ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، له جل وعلا القدرة الشاملة والمشيئة النافذة والحكمة البالغة جل وعلا ، لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه جل وعلا ، خلق كل شيء ، خلق العباد وخلق أعمال العباد ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦] .

فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان ، ومن يكفر بشيء من أصول الإيمان تبطل أعماله ولا تقبل منه طاعاته ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ، ومن كان جاحداً لشيء من أصول الإيمان فما اتقى الله جل وعلا وما حقق الإيمان الذي بُني عليه دين الله جل وعلا، ولهذا قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] .

والإيمان بالقدر أحد هذه الأصول العظيمة التي يبنى عليها دين الإسلام ، لأن مثل الإسلام مثل شجرة لها أصل ثابت وفروع متنوعة وثمار أيضاً متعددات كما قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ [إبراهيم: ٢٤] . وأصول الإيمان التي تقوم عليه شجرة الإيمان هي هذه الأصول الستة ، ومحل هذه الأصول القلب ؛ الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل والإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى .

فهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان مكانة الإيمان بالقدر من توحيد الله ؛ وذلك أن توحيد الربوبية لا يتم إلا بالإيمان بالقدر ، وأن الأمور بتقدير الله ، وأن الله خالق كل شيء ، فمن جحد القدر ما آمن بربوبية الله ، ومن لم يؤمن بربوبية الله ما وحّد الله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «القدر نظام التوحيد ؛ فمن وحّد الله وكذّب بالقدر نقض تكذيبه توحيد» ، وهذا يبين لنا الصلة بين الإيمان بالقدر والتوحيد ، وأن التوحيد لا ينتظم إلا بالإيمان بالقدر ، فمن لم يؤمن بالقدر لم يوحد الله ، لأن تكذيبه بقدر الله سبحانه وتعالى ناقضٌ لتوحيده ، وهذا وجه إيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذا الباب في كتاب التوحيد ، لأن التوحيد لا يستقيم ولا يتم إلا بالإيمان بالقدر وأن الأمور كلها بمشيئة الله سبحانه وتعالى وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

قال : ((باب ما جاء في منكري القدر)) أي من الوعيد الشديد .

قال ((وقال ابن عمر)) عبد الله ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه وعن الصحابة أجمعين .

قال : ((والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر . ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) ؛ وذكر ابن عمر رضي الله عنهما لذلك له قصة وهي : أن يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ رحمه الله تعالى وَحْمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ -وهما من التابعين ممن أدركوا الصحابة رضي الله عنهم- يقول: خرجتُ أَنَا وَحْمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْقَدْرِ قَبْلَنَا -أي في العراق- مُعَبَّدُ الْجُفَيْيِّ ، فَقُلْنَا لَعَلْنَا نَدْرِكُ أَوْ نَظْفِرُ بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ . قال رحمه الله : فاتفق لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فسألناه قلنا له : إن قَبْلَنَا أَنَاسًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ ويقولون لا قدر ؛ أي مع كونهم يقرؤون القرآن - ومعنى يتقفرون العلم: أي يطلبون العلم ويشغلون بطلب العلم- ومع هذا يقولون لا قدر ، وهذا أيضاً يستفاد منه أن بعض من يقرأ القرآن ويشغل بطلب العلم قد يدخل عليه بعض الدواخل من الأمور التي هي من فساد الاعتقاد ويكون دخولها عليه ليس من جهة القرآن ولا من جهة سنة النبي عليه الصلاة والسلام فإنهما لا يأتیان إلا بخير ، ولكن تدخل عليه الدواخل من جهة الشبهات أو أشياخ الضلال أو علماء الباطل أو وساوس الشيطان أو نحو ذلك ، فذكر له أن قبلهم أقوام يتقفرون العلم وقرءون القرآن ومع ذلك يقولون لا قدر ، فقال لهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي ، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ» لماذا ؟ لأنه فقد أصل وكذّب بأصل يقوم عليه دين الله تبارك وتعالى ، وإذا فقد الأصل لم يُقبل العمل ، لأن من يعمل وهو جاحد لشيء من

أصول الإيمان لا يكون متقيا لله والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ، وأين التقوى إذا كان يجحد شيئا من أصول الإيمان العظيمة وأسسها المتينة التي دل عليها كتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه؟!

قال: «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا» ليس هذا مرادًا به التحديد ، بل لو كان له مثل جبال الدنيا ومثل الأرض وما فيها ، لكن هذا إشارة ومثال لبيان فساد أعمالهم مهما كثرت ، لو كان عنده مثل أحد ذهبًا وأنفقه في سبيل الله يبتغي بإنفاقه وجه الله سبحانه وتعالى ما تقبل الله سبحانه وتعالى منه ما دام منكراً للقدر ، قال «حتى يؤمن بالقدر» .

ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ؛ ساق رحمه الله لهما حديث والده عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي عليه الصلاة والسلام في صورة رجل فسأله عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان ، وفي جواب النبي صلى الله عليه وسلم لسؤاله عن الإيمان قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، وهذه الستة المذكورات في هذا الحديث هي أصول الإيمان الستة التي يقوم عليها الإيمان ، وهي أصول مترابطة ومتلازمة ؛ لا يُقبل الإيمان ببعضها إلا بالإيمان بباقيها ، والكفر ببعضها كفرٌ بها كلها لأنها مترابطة ومتلازمة ، فمن يكفر بالقدر كفرٌ بكل أصول الإيمان ولا تُقبل منه أعمال ، مثل من يكذب بالرسول أو يكذب بالكتب أو يكذب باليوم الآخر أو نحو ذلك ؛ فالتكذيب بأصل واحد من أصول الإيمان كفر بالله سبحانه وتعالى وكفر بالقرآن وكفر بالرسول عليهم صلوات الله وسلامه ومُبطل للأعمال كلها كما تقدم معنا في الآية الكريمة ﴿وَمَنْ يُكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٠]

قال رحمه الله تعالى :

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من مات على غير هذا فليس مني))» وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» . وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار)).

قال رحمه الله تعالى : ((وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه)) أي ابنه الوليد ابن عبادة كما جاء مصرحًا باسمه في بعض الروايات .

((قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) ؛ طلب منه أن يوصيه فأوصاه بهذه الوصية التي هي الإيمان بالقدر وبيّن له كيف يكون الإيمان بالقدر ، ولهذا سيأتي في الفوائد المستنبطة قول الشيخ رحمه الله: «كيفية الإيمان بالقدر» ، فبين له كيف يؤمن بالقدر ؛ وذلك بأن يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، بمعنى أن الأمور كلها بتقدير الله سبحانه وتعالى ؛ الحسنات والسيئات ، الطاعات والمعاصي ، الخيرات والشرور ، كل شيء بقدر كما في الحديث ((كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ)) ، فكل الأمور بتقدير الله سبحانه وتعالى ، والله جل وعلا خالق كل شيء الله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦] .

((فقال يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان)) ومعنى طعم الإيمان : أي حلاوة الإيمان ولذة الإيمان .
((حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) أي حتى تحقق الإيمان بالقدر على هذه الصفة ويكون عندك علم اليقين بأن الأمور كلها بقدر الله سبحانه وتعالى وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

وبيّن رضي الله عنه وأرضاه أن طعم الإيمان وحلاوته لا يذاق إلا بذلك ، وإذا نظرت مع هذا إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ)) فالذي يجحد القدر أين محبته لله؟ وأين محبته لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو جاحد لما دل عليه كلام ربه، وجاحد لما دل عليه كلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ والآيات في الإيمان بالقدر في القرآن كثيرة ، والأحاديث في الإيمان بالقدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة ؛ فأين إيمانه بالله؟ وأين محبته لله؟ وأين إيمانه بالرسول؟ وأين محبته للرسول عليه الصلاة والسلام إذا كان جاحداً ومكذباً بالقدر؟! فحلاوة الإيمان لا يذوقها مع التكذيب بأقدار الله سبحانه وتعالى . ومثله أيضا الحديث الآخر : ((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا)) .

قال ((لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم)) ؛ مراده بقوله «تعلم» : أي علم يقين لا شك فيه ولا ريب ، والإيمان لا يكون مقبولا إلا إذا كان عن يقين ، أما إذا داخله شيء من الشك والريب فإنه لا يكون إيمانا ، قد قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] أي أيقنوا ولم يشكوا .

قال: ((حتى تعلم أن ما أصابك)) من خير أو شر ، من نفع أو ضرر ، من صحة أو مرض ، من غنى أو فقر إلى غير ذلك ((لم يكن ليخطئك)) ؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى نافذة وما شاء الله سبحانه وتعالى كان ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، ولهذا جاء في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((وإنَّ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)) ، لأن مشيئة الله نافذة ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] . ((فما أصابك)) أي من خير أو شر ، من صحة أو مرض ، من غنى أو فقر إلى غير ذلك ((لم يكن ليخطأك)) لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى نافذة ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى . ((وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) أي ما أخطأك من هذه الأشياء لم يكن ليصيبك لأن الله ما قدَّر ذلك ، ولو كان قدره الله لوقع طبقاً لما قدر في الوقت الذي قدر على الوصف الذي قدر سبحانه وتعالى .

ثم قال مستدلاً لذلك : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) قد جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)) ، فقوله في هذا الحديث حديث عبادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إن أول ما خلق الله القلم)) المراد بهذه الأولوية: أي في هذا العالم السماوات والأرض وهذه المخلوقات ، أما العرش فكان قبل ذلك كما يفيد حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : ((وكان عرشه على الماء)) .

فقوله ((أول ما خلق الله القلم)) هذه الأولوية أي هذا العالم السماوات والأرض وهذه المخلوقات أول شيء خلقه الله سبحانه وتعالى منها هو القلم ؛ فأمره سبحانه وتعالى أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وكان خلقه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وأما العرش فمخلوق قبل ذلك ، وهذا قول جمهور أهل العلم : أن الأولوية هنا أي في هذا العالم ، وأما العرش فهو مخلوق قبل القلم كما يفيد ذلك حديث عبد الله بن عمرو قال صلى الله عليه وسلم : ((كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)) ، فالعرش مخلوق قبل القلم لكن القلم خلق بعد ذلك وهو أول شيء خلقه فيما يتعلق بهذا العالم.

وأول ما خلقه أمره الله سبحانه وتعالى بالكتابة ((قال اكتب ، فقال القلم رب وماذا أكتب ؟)) يا رب ماذا أكتب؟ أي شيء تأمري أن أكتبه ؟

فقال الله سبحانه وتعالى: ((اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) ؛ مقادير كل شيء هذه الكلية لكل شيء تتناول في جملة ما تتناوله أعمال العباد وأفعال العباد وما يحصل للعباد؛ من حياة أو موت أو رزق أو صحة

أو مرض ، وأيضا أعمالهم من كفر أو إيمان أو طاعة أو معصية أو غير ذلك ، هذه كلها كُتبت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

وهذه الكتابة لأعمال ومقادير العباد إلى قيام الساعة ((حتى تقوم الساعة)) فالكتابة إلى هذا الوقت حتى تقوم الساعة ، فكل ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة كُتب ، كُتب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ خلق الله القلم وأمره أن يكتب بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ فكتب ذلك ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣] ، ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ، فكل ذلك كُتب في اللوح المحفوظ أمر الله القلم أن يكتب فكتب ذلك كله .

فإذا الإيمان بأن الله كتب مقادير الخلائق حتى قيام الساعة هذا الإيمان يقتضي أن يؤمن مثل ما قدّم عبادة رضي الله عنه بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، كيف يخطئ العبد وهو مقدّر من ذلك الحين ومن ذلك الوقت!! وما شاء الله سبحانه وتعالى كان في الوقت الذي يشاء على الصفة التي يشاء سبحانه وتعالى .

قال : ((يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات على غير هذا فليس مني)) ؛ وهذا فيه براءة النبي عليه الصلاة والسلام ممن لم يؤمن بالقدر . ومَرّت معنا براءة ابن عمر من أولئك الذين يقولون الأمر أنف ولا قدر ، قال «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَأٌ مِنِّي» .

قال : ((وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة)) أي الساعة التي أمره الله سبحانه وتعالى فيها بالكتابة ((جرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) أي كتب كل ما هو كائن من مقادير العباد وأعمال العباد وأرزاق العباد وآجال العباد وأحوالهم إلى غير ذلك كله في تلك الساعة جرت كتابته إلى يوم القيامة . وهذا فيه عظمة الله سبحانه وتعالى ، وأنه جل وعلا على كل شيء قدير ، ولا يعجزه شيء جل في علاه . فجرى كتابة القلم بكل ما هو كائن . ولهذا لا يكون العبد مؤمناً بالقدر إلا إذا آمن بهذه الكتابة .

والعلماء يقولون إن الإيمان بالقدر له أربع مراتب ، لا يكون العبد مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بها :

■ المرتبة الأولى : علم الله الشامل المحيط بما كان وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه جل وعلا أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا .

■ ثم الأمر الثاني أو المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر: الكتابة ؛ أن الله عز وجل كتب قبل خلق السماوات

والأرض بخمسين ألف سنة ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠] .

- المرتبة الثالثة : الإيمان بمشيئة الله وأن كل شيء بمشيئته وإذنه سبحانه وتعالى ولا يكون إلا ما شاء الله ، فله جل وعلا المشيئة النافذة والقدرة الشاملة ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . قال الإمام الشافعي رحمه الله في أبيات له في هذا المعنى :

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ	وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ	وَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَقْدُ وَالْمُسْنُ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ ، وَهَذَا خَذَلْتَ	وهذا أعنت ، وذًا لم تُعِنْ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ	وَمِنْهُمْ فَبِيحٌ ، وَمِنْهُمْ حَسَنٌ

أي أن هذا كله بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره جل في علاه .

- والمرتبة الرابعة: الخلق والإيجاد والتكوين وأن الله عز وجل خالق كل شيء ﴿وَاللَّهُ خَالِقُكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، ﴿وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] .

فهذه مراتب القدر ؛ علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو تكوين وإيجاد

فهذه مراتب القدر الأربعة ، ولا يكون العبد مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بها .

قال : ((وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار)) ؛ من لم يؤمن بالقدر: أي بمراتبه الأربعة التي تقدمت ، وقد كان القدرية الأول ينكرون القدر بمراتبه الأربعة بما في ذلك العلم والكتابة ينكرون ذلك كله ، ثم متأخروا القدرية صاروا ينكرون المشيئة والإيجاد ، ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يقولون : «خاصموا القدرية بالعلم» أي علم الله عز وجل بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون خاصموهم بالعلم ؛ «فإن جحدوه كفروا ، وإن لم يجحدوه خُصموا» لأنها تقوم عليهم الحجة بذلك .

ومن كان يجحد القدر بمراتبه الأربعة فهو كافر كافرًا أكبر ناقل من ملة الإسلام لجحدده لهذا الأصل العظيم والأساس المتين ، ومن كان يتعلق قوله في القدر بأعمال العباد وأن مشيئة الله سبحانه وتعالى ليس لها تعلق بأفعال العباد وأن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه فهذا مبتدع ضالّ مضل ، وبدعته هذه إن اتضح له الأمر وزالت عنه الشبهة قد تفضي به إلى الكفر بالله سبحانه وتعالى . ولهذا يخاصم هؤلاء مثل ما قال أئمة السلف يخاصمون بالعلم ويجادلون بالعلم ؛ فإن أقروا بالعلم خُصموا ، وإن جحدوا العلم -أي علم الله الشامل المحيط بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون- لو جحدوه كفروا بالله سبحانه وتعالى .

وقوله في هذا الحديث «أحرقه الله بالنار» أي أحرقه الله بالنار جزاء كفره بالله سبحانه وتعالى ، أو إذا كان عنده بدعة في هذا الباب جزاء بدعته التي ابتدعها وارتكبها في هذا الباب العظيم باب الإيمان بالقدر .

قال رحمه الله تعالى :

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب رضي الله عنه فقلت : في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله يذهب به من قلبي ، فقال: «لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار» . قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت رضي الله عنهم فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . حديثٌ صحيح رواه الحاكم في صحيحه .

قال ((وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي)) عبد الله بن فيروز .

قال : ((أتيت أبي بن كعب رضي الله عنه فقلت : في نفسي شيء من القدر)) ؛ أي دخلت عليه شبهة أو شيء من الشك فيما يتعلق بالقدر وأقدار الله سبحانه وتعالى .

فقال له أبي: ((لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر)) ؛ هذا نظير قول ابن عمر المتقدم «لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر» أي أن جميع أعمالك وطاعاتك ولو قدر أن عندك مثل أحد ذهباً أو أكثر من ذلك أو أقل وأنفقتك كله في سبيل الله وأمضيت حياتك عبادةً وطاعة لله جميع ذلك لا يقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، لأن - كما تقدم - الإيمان القدر أصل من الأصول التي يقوم عليها دين الله تبارك وتعالى، فإذا لم يحصل الإيمان بهذا الأصل حبطت الأعمال وكانت باطلة ﴿وَمَنْ يُكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] .

قال : ((حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) ؛ وهذا نظير كلام عبادة بن الصامت المتقدم . وهذا فيه كيفية الإيمان بالقدر ، ولهذا سيأتي معنا في المسائل التي ساقها الإمام رحمه الله «المسألة الثانية كيفية الإيمان به» ؛ هذه أخذها رحمه الله من قول عبادة وقول أبي ((أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) لماذا؟ لأن الأمور كلها بقدر الله وأن ما شاء الله سبحانه وتعالى كان وما لم يشأ لم يكن ، له المشيئة النافذة والقدرة الشاملة جل وعلا .

قال : ((ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار)) لو مت على غير هذا ، على غير الإيمان بالقدر لكنت من أهل النار ، وهذا نظير ما تقدم في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ((أحرقه الله بالنار)) ، قال : ((فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار)) .

قال ابن الديلمي : ((فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم)) ؛ وهنا يؤخذ فائدة نبّه عليها المصنف رحمه الله تعالى : أن الشبهة إذا عرضت للإنسان ووفق له بأن يسأل عنها أهل العلم وأهل الرسوخ في العلم والبصيرة فإنها تزول بإذن الله تبارك وتعالى ، إذا رد هذه الأمور إلى أهل العلم إلى الراسخين فيه فإنه بإذن الله تبارك وتعالى يبينون له بما آتاهم الله من علم ووفقهم إليه من بصيرة بدين الله يبينون له ما تزول به الشبهة ويتضح به الأمر ويستبين السبيل ، بينما إذا طرح شبهته على غير أهل العلم زادوا الأمر اشتباهاً والتباساً ؛ ولهذا من منهج السلف رحمهم الله تعالى -وهذا نبّه عليه المصنف- ومن عادتهم في إزالة الشبهة أن يسألون العلماء يسألون الراسخين في العلم ، وانظر ما تقدم من سؤال يحيى ابن يعمر ورفيقه حميد ابن عبد الرحمن لابن عمر رضي الله عنهما في الشبهة التي يثيرها القدرية في العراق ، فسؤال أهل العلم والرجوع إلى العلماء هو الذي يتضح به الأمر وبه تزول بإذن الله تبارك وتعالى والشبهات.

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

أي أن الإيمان بالقدر فريضة من فرائض الدين وأصل من أصول الإيمان ، وقد تقدم عدُّ النبي صلى الله عليه وسلم للإيمان بالقدر في جملة أصول الإيمان العظيمة .

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

هذه المسألة الثانية من المسائل كيفية الإيمان بالقدر ؛ جاء بيانها في حديث عبادة وأيضاً حديث أبيّ في قولهما : «أن تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك» .

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

وقد تقدم معنا في قول ابن عمر رضي الله عنهما «لو كان لأحدهم مثل أخذ ذهاباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه» ، ومثله كذلك قول أبي ابن كعب رضي الله عنه . فإحباط عمل من لم يؤمن به ، والإيمان بالقدر من

أصول الإيمان والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَنْ يُكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] .

الرابعة: الإخبار بأن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الإخبار بأن أحدًا أي من الناس لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به ، وقد تقدم في حديث عبادة ((يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)). .

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

ذكر أول ما خلق الله أي قبل خلق السماوات والأرض لا قبل خلق العرش ، فأول ما خلق الله قبل خلق السماوات والأرض هو القلم ، وأما العرش فمخلوق قبل ذلك وقد تقدم حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وهو في صحيح مسلم في الدلالة على ذلك ، وثمة أيضا أدلة غير ذلك ذكرها أهل العلم وهو قول جمهور أهل العلم في أيهما خلُق أولاً العرش أو القلم ؟ .

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

وهذا فيه كمال عظمة الله وقدرته جل في علاه ؛ في تلك الساعة جرى بكتابة كل ما هو كائن من أعمال العباد وغير ذلك إلى قيام الساعة .

السابعة: براءته صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن به .

لقوله في حديث عبادة : ((من مات على غير هذا فليس مني)). .

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

ونعمت العادة المباركة وهي التي ينبغي أن يكون عليها المسلم ؛ عندما تعرض عليه شبهة ينبغي عليه أن لا يعرضها إلا على العلماء الذين عندهم البصيرة والرسوخ -رسوخ القدم في العلم- فإنهم هم الذين يحصل عندهم بإذن الله ما تزول به الشبهة ، أما إذا عرضها على غير أهل العلم زادوا الاشتباه اشتباهًا .

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل عنه الشبهة، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط .

وهذا فيه ما يتميز به أهل الرسوخ في العلم ، أهل الرسوخ في العلم عندما يُسألون يوضّحون الأمور من خلال الأدلة ، ولعلك قد رأيت فيما ساقه من أجوبة الصحابة رضي الله عنهم في حديث ابن عمر كان جوابه سوق الحديث ؛ «سمعتُ عمر بن الخطاب» وذكر حديث جبريل بتمامه ليستشهد منه بقوله ((وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، ومثله عبادة بن الصامت رضي الله عنه استشهد بقول النبي صلى الله عليه وسلم ((إن أول ما خلق الله القلم)) ، ومثله أيضًا أبي بن كعب رضي الله عنه في استشهاده بكلام النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه . فالشاهد أن طريقة أهل الرسوخ في العلم إجابتهم من يسألهم بكلام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقط ، لأن الدين قال الله قال رسوله ، أما من سواهم فإنه يجيبهم إما بفلسفة أو بالرأي المجرد أو بالآراء أو الأهواء أو غير ذلك من الأمور التي تكون من غير أهل العلم والبصيرة بدين الله تبارك وتعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .